صور من حياة الانجليز الاجتماعية
في القرن الثامن عشر

للكاتب العظيم يوسف أديسون

بقلم الأســـتاذ علي محمد سرطاوي

١٦٧٢ — ١٧١٩

حياة المؤلف :

« أتم دراسته في جامعة اكسفورد ، متمكناً من اللاتينية تمكناً أثار إعجاب الشاعر درايدن ، للقصائد الرائعة التي كان ينشرها بتلك اللغة . ونشر ١٧٠٤ ملحمة بعنوان (كبابن) أي الحملة ، أشاد فيها بالنصر العظيم الذي انتصره الانجليز في معركة بلنهيم . وفي ١٧٠٦ عين عضوا في مجلس النواب البريطاني فوزيراً للدولة . وسافر بعد ذلك إلى أرلندا سكرتيراً لحاكمها العام اللورد ورتون . وكان صديقاً حميماً لرجال الأدب في عصره مثل ستيل ، وسوفت وفي عام ١٧٠٩ ابتدأ سلسلة مقالاته الاجتماعية والأدبية التي صور فيها حياة الانجليز أتم تصوير ، والتي ننقل عنها هذه الصور الاجتماعية ، وأخذ ينشرها في صحيفة صديقه الحميم ريتشارد ستيل التي كانت تصدر باسم تلر . وفي عام ١٧١٢ تعاون مع صديقه ستيل على إصدار صحيفتي السكتاتور والفارديان . ولما عاد حزب الأحرار إلى الحكم عام ١٧١٥ عين سكرتيراً عاماً لإرلندا وأصدر جريدته السياسية فري هولد . وفي عام ١٧١٦ عين مديراً للتجارة وتزوج من الكونتس وروك . وترك الخدمة العامة سنة ١٧١٨ براتب تقاعدي مقداره ألف وخمسمائة جنيه في العام وتوفي في السنة التالية ودفن في كنيسة وستمنستر مقر العظماء .

لقد رثاه شاعر وهجاه آخر بعد موته ، والرثاء والهجاء قصة توجزها فيما يأتي : كان توماس تكيل يعيش في رعاية أديسون وكان يعطف عليه أشد العطف وقد تخرج في اكسفورد أيضاً . وكان الشاعر الكسندر بوب ينشر ترجمة الأليادة ، وكلما نشر فصلا ، أسرع تكيل إلى نشر الفصل ذاته من ترجمته في جرائد ستيل ، فكان يجن بوب من ذلك ويفترض أن أديسون هو الذي يحرضه على ذلك . ولذلك كان الرثاء الموجع من الشاعر تيكل ، والهجاء المقذع من بوب »

مباراة في التكشير :

أشرت في مقال سابق ، إلى اقتراح قُدّم باجراء مباريات بين الفنانين ، وتخصيص الجوائز ، تشجيعاً للانتاج المحلي في الصناعات اليدوية بين الصناع البريطانيين ؛ وقد أدهشني بعد ذلك الإعلان التالي في صحيفة پوست بوي في عددها الصادرين في الحادي عشر من الشهر الجاري والخامس عشر من شهر أكتوبر التالي ، « سيعطى إناء خزفي قيمته ستة جنيهات جائزة لسباق يقام في كولزهل من مقاطعة وروك شير بين الجياد الصافنات ، وسيعطى إناء خزفي آخر ، أقل قيمة من الأول ، لسباق بين الحمير ، وخصص خاتم ذهبي ، لمباراة تقام في نفس اليوم بين الرجال في التكشير » .

أما أولى هذه المباريات فقد تكون لها فائدة معقولة ؛ وأما المباراتان الأخريان ، فلا أرى لهما فائدة معقولة . أما لماذا يريدون إقامة مباراة بين الحمير وأخرى بين الرجال في وروك شير ، دون أي مكان في انجلترا ، فهو أمر لا أستطيع له فهماً وتعليلا . لقد قرأت كثيراً عن الألعاب الأولمبية ، فلم أجد فيها سباقاً للحمير أو مباراة للتكشير ؛ ولكن مهما كانت الأسباب المؤدية إلى ذلك ، فقد اتصل بعلمي أن مجموعات من الحمير تدرب ويسخى عليها في الطعام ، وأن عدداً كبيراً من الرجال على بعد عشرة أميال من مكان المباراة — يقضي الواحد منهم الساعات أمام المرآة يمرن عضلات وجهه استعداداً لذلك اليوم العظيم .

لقد أثارت الجائزة المقترحة تنافساً كبيراً بين طبقات الشعب ، حتى ليخشى أن تتشوه الوجوه ، ويعرف الرجل أنه من وروك شير ، بمجرد تكشيره . لقد كانت التفاحة الذهبية جائزة الجمال الساحر في الماضي ، فأصبح الخاتم الذهبي جائزة تشويه ما ركب الخالق من جمال في الوجوه .

وإنه لمن دواعي الغبطة أن ألفت نظر الفنانين الهولنديين ، إلى اغتنام هذه الفرصة لرسم مجموعة من الوجوه التي ستشترك في تلك المباراة العتيدة .

وتذكرني هذه المناسبة ، بحديث اتصل بي من رجل قرأ الإعلان عن مسابقة التكشير التي نحن بصددها ، فحدث أصحابه القصة التالية :

حينما سقطت مدينة نامور ، كان بين الاحتفالات الشعبية ، مباراة في التكشير ، على خاتم قدمه قاض من حزب الأحرار .

وكان أول المتبارين رجل فرنسي ، سرَّ عرضاً بتلك المدينة ، وخيل إليه أن نحافته وقبح وجهه ، ربما كانا عوناً له على نيل الجائزة ، فوضعت له منصة أمام الجمهور وطلب إليه أن يصعد إليها وأن يواجه الناس . وابتدأ يشد عضلات وجهه ، ويديرها يمنة ويسرة ، وقد استطاع أن يظهر عشرين سناً من أسنانه في التكشيرة الأولى ؛ وسرت همسات الاستياء بين الناس مخافة أن يظفر هذا الأجنبي بشرف الجائزة ، ولكن حسن الحظ أظهر أنه لا يجيد إلا التكشير المرح ، فلذلك لم يظفر بالجائزة .

واعتلى المنصة بعده إنجليزي ، يعتبر الأول في فن التكشير ، فأجاد إجادة لا مزيد عليها ، حتى لقد قيل إن عشرات من النساء الحبالى أجهضن ، ولكن المحكمين أخبروا بأن الرجل ينقوبي (نسبة إلى أتباع الملك جيمس الثاني أو ابنه) ، وساء الجمهور أن ينال الجائزة رجل يخرج في عقيدته السياسية على العرف العام ، وأن يصبح بطل التكشير في القاطعة ، فطلبوا إليه أن يقسم يمين الولاء للنظام الحاضر ، فرفض وكان السرور عظيما بإخراجه من بين المتبارين

وتقدم بعده للمنصة عشرات من المتبارين كان سوء الحظ حليفهم ، واست أنسى من بينهم فلاحاً يعيش في طرف ناء من القاطعة ، رزقه الله فكين طويلين ، كشر بهما عن سحنة الشياطين نعوذ بالله منها . وقد أدهش الجمهور بمهارته في تكشيرة معقدة ، وكادت الجائزة أن تعطى له لولا أن أحد المتبارين رهن للمحكمين على أنه استعمل الغش في المباراة ؛ ذلك أنه قد مرن عضلات وجهه على نوع من عصير الفاكهة أكسب تلك العضلات هذا اللين العجيب ، وأن حبة زعرور قد وجدت قريبة من مكان وقوفه ، فوافق المحكمون على إخراجه باعتباره محتالا .

وتقدم بعد هؤلاء إسكافي يدعى جيلز جورجون Giles Gorgen دلت المقدمات على أنه سيربح الجائزة لإظهاره ألواناً من التكشير ، اخترعها ، وهو يجاهد في رتق الأحذية . لقد ذهبت الملامح الإنسانية من وجهه في التكشيرة الأولى ؛ وانقلب وجهه في الثانية إلى ما يشبه الزراب ، وأصبح قرداً بشعاً في الثالثة ، وأصبح رهيباً كذئب البحر في الرابعة ، وككسارة اللوز في الخامسة ، وكان إعجاب الجمهور عظيما بمهارته فمنح بالإجماع الخاتم الذهبي . وأعجب ما يتصل بهذا الإسكافي ونيله الجائزة ، أن فتاة ريفية جميلة طالما تودد إليها هذا الرجل فرفضته في الماضي ، وما كادت تراه يتسلم الجائزة الثمينة بين إعجاب الجمهور وهتافه وتصفيقه حتى سارعت إليه تطلب وده ، وتزوجا في الأسبوع التالي . وكان خاتم الخطبة تلك الجائزة التي تعتز وتباهي لذاتها بها .

ليس في النية أن تنتهي هذه المقالة بأفكار جدية ، إنما ألفت نظر المسؤلين عن إقامة هذه المباريات إلى الجرم الشنيع الذي يقترفونه في حق مواطنيهم بتشجيعهم مباريات حيوانية منحطة من هذا النوع ، أقل ما يقال فيها إنها دعوة علنية إلى التشبه بالقردة والحيوانات ؛ وأنهم يملأون رؤوس هؤلاء الجهلاء بطموح رخيص ، بدلا من الارتفاع بهم إلى مستوى تهذيبي يليق بالإنسان .

علي محمد سرطاوي

مراجع هذا البحث :

(1) Essays of Hddison
(2) Oxford Companion of English Literature ; Harvy.

لم يبق في إدارة الرسالة
إلا نسخ محدودة
من كتاب
دفاع عن البلاغة
للأستاذ
أحمد حسن الزيات
فبادر باقتناء نسختك
قبل نفادها
ثمنها ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد